موقف العقل والعلم والعالم

من رب العالمين

وعباده المرسلين

تأليف

مصطفى صبري

شيخ الإسلام للدولة العثمانية سابقاً

الطبعة الثانية

١٤٠١هـ - ١٩٨١م

دار

إحياء التراث العربي

بيروت - لبنان

بسم الله الرحمن الرحيم

كلمة المؤلف

إلى روح والدى ...

كان أعظم أمانيك فى أمرى .. رحمة الله عليك وعلى والدتى التى لم تكن تساهمك فقط ، بل تسابقك فيما يرجى فيه رضى الله تعالى ، حتى انى كنت أقنعتها قبلك ـ وأنا فى ملتقى الشباب والصبا ـ بأن تأذن لى وتستأذنك فى السفر لأول مرة إلى قيصرية المشتهرة بعلمائها بين مدن الأناضول ... كان أعظم أمانيك أن أجتهد فى طلب العلم وأصبح عالما من علماء الدين . وكنتَ فى رغبتك هذه أشد شرها من المنهومَين[1] حتى انك لما أتيت الاستانبول من بلدنا توقاد ورأيتنى مدرساً فى جامع السلطان محمد الفاتح ـ الذى كان فى عهد الدولة العثمانية كالأزهر الشريف بالقاهرة وأفضل من الأزهر الحاضر ـ وأنا يومئذ فى الثانية والعشرين من عمرى ، قلتَ لبعض أصدقائك عنى : « استأذنى لطلب العلم فى الآستانة بعد القيصرية[2] فما لبث أن حصل على شهادة العالمية وتربع على كرسى التدريس . وكان الواجب عندى أن يستمر فى التعلم حتى يبلغ الثلاثين على الأقل » .

---

[١] منهومان لايشبعان طالب علم وطالب دنيا (الحديث) .

[٢] أخذت العلم فى القيصرية عن الشيخ محمد أمين الدوركى الشهير بداماد الحاج طرون أفندى ، وقبلها فى بلدنا توقاد عن تلميذ أستاذى فى القيصرية الشيخ أحمد افندى زولبية زاده إلى آخر التصورات من شرح الشمسية للقطب الرازى ، وأخذت فى الآستانة عن محمد عاطف بك الأستانبولى وعن أحمد عاصم افندى الكوملجنوى الذى كان وكيل الدرس فى المشيخة الإسلامية والذى زوجنى بنته بعد أن توليت التدريس . فأولئك أساتذتى وشيوخى تغمدهم الله برحمته .

وقد كنت رحمك الله على حق فى استقلال مكتسباتى العلمية ، لكن استعجال القدر فى أمرى ظهرت حكمته بعد أن عاينت ما كان ينتظرنى من وقائع الحياة الهامة . ثم كان ثانى مالم يسرك من موقفى يومئذ أنى توليت وظيفة التدريس بمرتب من الحكومة ، وكان هذا على الرغم من أنك لست بذى ثروة تكفلنى وأسرتى المستقبلة . وبالقياس على هذا لاأرتاب فى أنك لو كنت حياً يوم توليت منصب المشيخة الإسلامية فى الدولة العثمانية ما ازددتُ مكانة عندك وحصولا على مرضاتك .

ولكنك لو رأيتنى وأنا أكافح سياسة الظلم والهدم والفسوق والمروق ، فى مجلس النواب وفى الصحف والمجلات قبل عهد المشيخة والنيابة وبعدها ، وأدافع عن دين الأمة وأخلاقها وآدابها وسائر مشخصاتها ، وأقضى ثلث قرن فى حياة الكفاح ، معانياً فى خلاله ألوان الشدائد والمصائب ومغادراً المال والوطن مرتين فى سبيل عدم مغادرة المبادئ ، مع اعتقال فيما وقع بين الهجرتين ، غير محس يوما بالندامة على ماضحيت به فى هذه السبيل من حظوظ الدنيا ومرافقها — لأوليتنى إعجابك ورضاك .

وهذا الكتاب الذى وضعته فى سنواتى الأخيرة سنوات التوقف فى المهجر عن الجهاد السياسى متفرغا للجهاد العلمى الدينى ، والذى كتبت فيه مايحتاج المتعلم المسلم إلى معرفته من المسائل العلمية والفلسفية لتسلم عقيدته الدينية وتصمد أمام تيارات الزيغ العصرى وناضلت أشتاتاً من أهل العلم والأدب فى الشرق والغرب أحياء وأمواتاً[١] وقد توغلت فى طريق الجهاد حتى جاهدت مع الذين ناضلتهم ، عجمةَ قلمى عند الكتابة ... هذا الكتاب أرجو أن يكون مما يرضيك ويتفق مع ما كنت تتوقع منى بعد طلب العلم ، وأنا أحتسب فى رضاك هذا رضى ربى سبحانه وتعالى[٢] .

---

[١] وبعضهم كانوا أحياء فى أثناء تأليف الكتاب ثم ماتوا قبل نشره .

[٢] رضى الرب فى رضى الوالد (الحديث) .

أما رضى الله مباشرة فذاك أجل وأسمى من أن يكون مبتغى مثلى من أقل عباد الله بواسطة كتاب مثل كتابى من أقل الكتب .

* * *

ثم إلى الفئة القليلة الذين يرغبون فى قراءة كتابى هذا رغم ماتضمنت قراءته من إتعاب الفكر وشغل غير قليل من الوقت ... إلى الذين يرغبون فى قراءته مهتمين به، لا قائلين بعد إجالة نظرات عابرة فيما اتفق لأعينهم من صفحاته ، مامعناه :

« مالنا وللتثبت فى العقيدة الدينية الضائعة بين العقلية القديمة والحديثة المتأثرة من تيار الشكوك التى أصدرها الغرب المسيحى من ناحية واللاديني من ناحية إلى شرقنا الإسلامى ، كما يُصدر سائر بضائعه ، وكان فى طليعة هذا النوع من الصادرات المتعلمون على النظام الحديث ... مالنا وللتثبت الذى يصل بنا هذا الكتاب إليه ويستأصل جذور تلك الشكوك فى ادعاء مؤلفه ؟ فهل فيه للفقير مايقوته أو يكسوه فى دنيا الجاعة والعرى ، وللعامل المجهود مايخفف عنه ثقل العمل ، وللمهموم مايعلله ويسليه ؟ وبالاختصار : هل فيه ماينفع الإنسان فى هذه الدنيا الدنية المرتدية برداء المدنية ؟ » أقول :

إن بين الدين والدنيا مسألة العلم لايمكن أن يتخلى عنها متعلمو البلاد كما لايمكن أن تتخلى البلاد عن المتعلمين . فهذه المسألة هى التى تكون رابطة بين الدين والدنيا وتمنع الدنيويين أن يتخلوا عن الدين ، لأن مرجعه إلى فلسفة مابعد الطبيعة التى هى الفلسفة العالية رغم المستخفين بها من فلاسفة الغرب والمحاولين إخراجها من العلم وحصر العلم فيما يستند إلى التجارب الحسية ، وتبعهم معالى هيكل باشا فى مقدمة كتابه « حياة محمد » والأستاذ فريد وجدى بك على طول مجلة الأزهر . ونحن سنثبت فى غير موضع من كتابنا هذا بعون الله وتوفيقه أن العلم الذى يستند إليه الدين أفضل من علم الماديين . وهنا نكتفى بأن نقول سلفا ان النفس الناطقة التى هى مناط العلم ليس

إلا أمراً ميتافيزيقيا كالعلم نفسه يعجز الطبيعيون عن إدراك ماهيته ، ولذا قال (شاتوبريان) : «إن الإنسان حيوان ميتافيزيقي» وفيه امتيازه على سائر الحيوانات .. وناهيك فى اتصال الدين الوثيق بالعلم قول الله عز وجل « إنما يخشى الله من عباده العلماء » .

قلنا إن مسألة العلم تتوسط بين الدين والدنيا وتربط أحدهما بالآخر فيحتاج إليها طالب كل من الطرفين ، وإن كان كتابى هذا يعنى العلم من ناحية اتصاله بالدين كما أنه أى كتابى يُعنى بناحية كون الدين حقيقة من الحقائق مقطوع النظر عن نفعه فى الدنيا والآخرة .. وهذا كما قد يكون العلم مطلوباً لنفسه من غير ملاحظة نفعه للدين أو الدنيا فهو يستغنى بما فيه من لذة الروح عن غاية أخرى ، ويكون مدّعو هذا القصد من العلم كثيراً وأصحابه أقل من القليل .. وإنى قوى الأمل فى أن كتابى يخدم مع أهل الدين هذه الطائفةَ القليلةَ الوجود من الراغبين فى العلم .

فبقيت الطائفة المتعلمة التى يكون مقصودها من طلب العلم الحصول على شهادة العلم لا العلم نفسه ، فإذا استفادوا بتلك الشهادة شيئاً من الدنيا كالمال والجاه والشهرة كان ذلك شهادة على شهادتهم التى تحتاج إلى شهادة ... بقيت هذه الطائفة لا يعنيهم الدين ولا صلته بالعلم ولا مبلغ هذا العلم من القوة والأهمية ، وهم الذين يكونون على كثرتهم وتجارتهم الرابحة ، رمزاً لفقر البلاد وإفلاسها المعنويَّيْن .

ولقائل أن يقول لى وأنا مشغول البال بالمتعلمين المتوقع منهم أن يكونوا قراء كتابى: إن للبلاد فى هذه الآونة شغلا شاغلا عن قراءة الكتب مهما كان مبلغ أهميتها فى الدين والعلم وفى فصل النزاع بينهما قِدماً فى الغرب وحديثاً فى الشرق الإسلامى منذ تفانى فى تقليد الغرب .. وهو شغلها بالسعى فى الاستقلال والتخلص من تحكم الدول الكبيرة الغالبة فى الحرب الأولى والثانية العالميتين ، فهى تسعى قبل كل شىء وترجيحاً على كل شىء أن تتخذ لها مكاناً بين الدول سويا تعيش فى الدنيا كما يعيش

غيرها فى مأمن من التدخل والعدوان ... وجوابى على هذا القول يحتاج إلى تبسط فى البيان على الوجه الآتى :

يا إخوانى المسلمين فى المشارق والمغارب ويا أمم الدول الصغيرة قدما أو بعد أن كانت دولة شامخة : إنا أضعنا الدنيا ، وبقينا ألعوبة فى أيدى ثلاث دول كبيرة من الكبائر، أولاها ثالثة الأثافى وثالثتها شر من أولاها ؛ وقد سنحت لنا بأجمعنا أثناء الحرب العالمية الثانية المنتهية انتهاء لفظيا ، فرصة أقل ما كان فى انتهازها أن لا نقع فى ندامة من جرب المجرب وأن لا نتطفل على الغالب تطفلنا اليوم ، فرصة فطن لها من فطن فتقدم مثالا لغيره يدعوهم إلى الواجب ، وكان كزيادة فرصة على فرصة ، ولكنهم خذلوه وضيعوه مع الفرصة : وهذه كلمة حق أقولها ولو كره المبطلون ، لعلها تنفعنى يوم ينفع الصادقين صدقهم .

أضعنا الدنيا وأضعنا الفرصة فأصبحنا ألعوبة فى أيدى الدول الكبرى اللائى فعلن ما فعلن فى الحرب وقتلن من قتلن فيها من ملايين البشر .. والآن وقد مضت على انتهاء الحرب ثلاث سنوات لايزال الموت الذى فتحت الحرب أبوابه على مصراعيها ، يأكل من سكان الأرض الباقين بعد الحرب الصارخة صراخ النفخة الأولى المميتة من صور إسرافيل .. يأكلهم بأنيابها الصامتة من الجوع والعرى والتشريد .. مع أن هذا النوع من الموت أعم وأشمل لغير المحاربين .. فما ذنبهم يشتركون فى تبعات الحرب التى لم يشتركوا فيها غالبين ولا مغلوبين ؟

ولم تقنع الدول المحاربة بإثارة هذا النوع من الموت على العالم فى السلم بعد الحرب بل ابتدعوا نوعاً آخر أدهى وأمر ، وهو أنهم أسسوا مجمعاً مسمى بهيئة الأمم دعوا إليها مندوبين من كل دولة صغيرة وكبيرة ليحكموا فيها على من يشاءون من الأمم بما يشاءون ظلما وعدوانا ويقسموا وبال الظلم والعدوان بين مجموع الهيأة ، حتى جعلوا من حق هذه الهيأة وفى وسعها أن تنزع بلاداً من أهلها وتمنحها قوما غيرهم من غير

حرب ، ولكن كزكاة الظفر للحرب العالمية الثانية المنتهية ، وإن لم تكن صلة هذه الحرب بتلك البلاد ولا بأهلها .. كما ترى هذه الحالة فى فلسطين التى تمنحها هيئةالأمم مشردى اليهود الافقين لينشئوا فيها دولة .. حتى إن أمريكا وروسيا الحليفتين ضد الألمان فى الحرب وضد العرب بعد الحرب والجارّتين من ورائهما فى هيئة الأمم كثيراً من الدول الصغيرة ، لو اتفقتا على إنشاء دولة يهودية فى ألمانيا أو اليابان كان له شىء من المناسبة والمعقولية .. لكنى أرى تلك الدول الصغيرة التى انحازت إلى جانب الكبيرتين الظالمتين فى مسألة فلسطين أحق إلى التعيير والتشهير من أمريكا وروسيا وأحق من هبنقة فى موقفها المؤيد لخصوم الدول العربية الظالمين(١) .

---

[١] كلنا يعلم فتنة اليهود السلطة على المسلمين منذ عهد الصحابة رضوان الله عليهم بل من عهد النبي صلى الله عليه وسلم إلى يومنا هذا الذى يحاربون فيه العرب لاغتصاب فلسطين من أيدى أهلها بقوة المهاجرين إليها من أبناء دينهم المشردين فى مختلف بلاد العالم لاسيما أوربا المسيحية . . يحاربون اليوم ليتملكوا فلسطين ويختلقوا لهم فيها دولة ، بعد أن كانوا بين سكان تلك البلاد قلة ضئيلة ، فى استطاعة الحاكمين فيها قرونا طويلة قبل الحروب الصليبية وبعدها من العرب والترك أن يطردوهم أو يذيبوهم فى أمتهم . أما فتنة اليهود على النصارى فهى أعظم من فتنتهم على المسلمين وأعمق لإنها فتنة متعلقة بدينهم لا من حيث انهم حاربوا النصرانية وحاربوا سيدنا المسيح نفسه أشد وأصرح من محاربة سيدنا محمد ، حتى انهم قتلوه فيما يعتقدون . . بل من حيث أن ضررهم على الديانة المسيحية بعيد الأثر جدا . فلما قتل المسيح فى عقيدة النصارى ثم قام حيا ورفع إلى السماء سبب ذلك عندهم التباسا بين ألوهية الله وبنوة المسيح ، التباسا يفسد عقيدة النبوة والألوهية معا ، فأخذوا يعدون المسيح ابن الله أو الله نفسه ويعدون الواحد ثلاثة والثلاثة واحدا ، ومعناه أنهم جعلوا العقيدة النصرانية مجمع النقائض والسخافات .

ينجلى من هذا البيان مبلغ تأثير اليهود فى إفساد ديانة المسيحية بسبب تصديقهم بقتل المسيح عليه السلام .

وزاد فى الفساد فساداً والسخافة سخافة تضحية الله بنفسه فى قتل المسيح توصلا بها إلى العفو عن ذنوب البشر . والله متعال عن أن يكون له مثل ضلال المعتقدين له هذه التضحية — كما ان عقيدة الدين الأصلى المنزل من عند الله على سيدنا المسيح براء من هذه السخافات الطارئة على المسيحية بعد رفعه إلى السماء ، بأيدى المحرفين المسرفين فى التحريف اسرافاً ليس وراءه اسراف — فيجعل الله من نفسه كبش الفداء لمصلحة المذنبين من عباده كأنه هو المذنب والمذنبون هم العافون =

وقد كان أجدر وأجدى للدول الصغيرة المضيمة للفرصة التى أشرنا إليها من قبل أن يجمعن شملهن بعد الحرب على الأقل فيعقدن فيما بين مجموعتهن حلفا رائما ويصبحن بفضل عددهن الكثير رغم مافى آحادهن من الصغر ، قوة رابعة فى خارج الدول الثلاث الكبرى الغالبة فى الحرب .

أضعنا الدنيا وخسرناها فلا نخادعْ أنفسنا بالاعتماد على قوة المستند العقلى وسلاح المنطق ، فهذا السلاح الذى كثيراً ما أدافع عنه فى هذا الكتاب ، إن كان يجدى كل أحد فى إثبات الحق أمام الحاكم العدل فلا يجدى أمام الحاكم بالقوة . فلو سعينا لأن نتقوى نحن أيضاً ـ ولا بد أن نسعى ونجتهد فى تعلم أسبابها ـ فلا نتقوى بقدر ماتقوت الألمان وتعلمت واجتهدت . ولو بلغنا مبلغها فى العلم والاجتهاد والاستعداد لما يكفينا ذلك فى بلوغ الغلبة النهائية كما لم يكف الألمان ، ولو سبقناهم واكتشفنا سلاحاً أمضى من القنبلة الذرية فلا يمهلنا حكام الدنيا المتغلبون لاستكمال تجاربه كما لم يمهلوا الألمان وكانت مزية الحلفاء الناجحين فى الحربين العظيمتين ، مزيتهم التى لاتبارى : أن كانوا سابقين غيرهم فى التحكم على أمم الأرض والاستيلاء على القواعد سبقاً زمانيا .

أضعنا الدنيا مع قوتنا البعيدة التدارك اليوم ، فلا نتوقع من بعدُ خيراً فيها ولا نأمل من سباع الإنس الضوارى إلا ولا ذمة .

= عن ذنبه بدلا من ذنوبهم والله الذي يملك العفو عن الذنوب مات فى عقيدة التضحية فليس هناك من يتولى العفو عن المذنبين غيرالمذنبين أنفسهم ، وليس هناك من يحيي الله الذى مات ، فلو قلنا ان احياء الله بعد موته كان بيده لم تكن التضحية تضحية .

وإنى كنت قلت عن مسيحي أمريكا ورئيسهم ترومان الذين انحازوا فى مسألة فلسطين الى جانب اليهود وجانبوا العرب والحق .. كنت قلت عنهم إنهم أبعد الناس عن الغيرة الدينية كبعدهم عن الغيرة على الحق والعدل .. لولا أنى وجدت لفعالهم هذا الذى لايوجدله مثيل فى السخافة ، اللهم الا ما فى عقيدة المسيحيين من تضحية الله بنفسه للعفو عن المذنبين والمجرمين من البشر الذين يدخل فيهم اليهود قتلة المسيح المعدود ابن الله أو الله نفسه ، دخولا أوليا .

ومما يؤسف له أن الدول الكبرى الغالبة التى وقعت البشرية بعد انتهاء الحرب بغلبتها تحت رحمتها ، أرادت إشراك الصغريات فى جنايتهم الحربية المفسدة للحياة المهلكة للحرث والنسل الجاعلة للدنيا تضيق على أهلها بما رحبت .. فحضّتها أى الصغريات على إعلان الحرب على الألمان وهم فى حالة سكرات الموت من الانهزام وفى غيرسعة الوقت لأن تصل إليهم ضربة من المحاربين الجدد ولو على آخر رمق من حياتهم. فكان معنى إعلان هذه الحرب اشتراكا لآثام الغالبين إن لم يكن اشتراكا فعليا فى الحرب ، وبالاختصار حركة غير شريفة طلباً لمرضاة الغالب عله يتصدق على الدخيل من زكاة الظفر . وقد نال هذا الرجاء المبنى على خدمة القوى ضد الضعيف ما يستحقه من الخيبة .

وكانت مصر طالبت الإنجليز فى غداة الحرب الكبيرة الأولى أيضاً باستقلالها، مستندة فى تلك المطالبة إلى مساعدتها فى الحرب ضد الدولة العثمانية التى كانت مصر تابعة لها وموقف الإنجليز منها موقف الغاصب .. كما استندت فى مطالبتها الثانية إلى مساعدتها ضد الألمان فى الحرب الثانية التى لاناقة لها فيها ولا جمل(١) سوى التمهيد للاشتراك فى الغنيمة بعد غلبة الإنجليز على الألمان بفضل مساعدة مصر .

أما موقف مصر فى مساعدتها الأولى للإنجليز فكان عبارة عن مطالبة الغاصب بثمن المساعدة . وأعجب منه أنها رمتنى لما هاجرت إليها رفضاً لحكومة مصطفى كمال الذى كان يُعد فى ذلك الزمان عدو الإنجليز ومكرهها على الجلاء من الآستانة . فكأنهم عابونى بمشايعة المغلوب فى معارضة الغالب فى حين أنهم لاعيب عليهم فى مشايعة الإنجليز الغالبة وخذلان تركيا المغلوبة وإن كانوا جد غالطين فى توهم

(١) كما خرج هذا التعبير أثناء الحرب من لسان شيخ الأزهر المراغى وسبب اشمئزاز الإنجليز .

الخصومة بين مصطفى كمال والإنجليز ثم فى افتراضه غالباً عليها فى تلك الخصومة ، وجد ظالمين فى رمي بدائهم ودائه .

عود على بدء ... ضيعنا الدنيا حين ضيعنا اللبن فى الصيف . فهمتنا اليوم أن نتمسك بديننا ونكسب الآخرة . وهذا الكسب هو الذى لايمكن الأقوياء الدنيويين من أعداء الدين أن يباورونا فيه والذى لاأدعو نفسى وأخوانى المسلمين إليه بدافع القنوط من الفوز الدنيوى ، فلو فزنا بالدنيا كان ما أدعو إليه أهم منها أيضاً .. لما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة قال ما معناه : « بلغت المنتهى فى اكتساب الدنيا فهمتى اليوم كسب الآخرة ! » فهذا الكسب هو الصفقة الرابحة التى لاصفقة تعدلها والتى تعوز الملوك . وإذا كان كسب الآخرة هو مهمة الناجح فى كسب الدنيا فلأن يكون مهمة الذين خسروها أولى .

* * *

ربما يوجد بين القراء المسلمين لاسيما مسلمى هذا العصر من يشق عليهم التسليم بضياع الدنيا بل قد يوجد فيهم من لاترضيهم الآخرة المجردة من الدنيا مهما جل نعيم الآخرة وضؤل بجانبه نعيم الدنيا الفانية . . ولى كلام معهم أيضاً وطريقة توصلهم إلى الجمع بين سعادة الدارين الذى لايجانبه الإسلام القائل بلسان نبيه : « ليس بخيركم من ترك دنياه لآخرته ولا من ترك آخرته لدنياه حتى يصيب منهما جميعاً فإن الدنيا بلاغ الآخرة » ولسنا نحن بفاقدى الأمل فى حالتنا الحاضرة كل الفقد إن كنا رجالا مستكملى العزم فى تدارك مافاتنا من كلا الأمرين . وإنى أعلنت إلى هنا كيف أضعنا الدنيا بتقصيرنا فيما كان يجب أن نعمل به على حسب ماحدث للدنيا من الأوضاع الجديدة ، ولم أذكر شيئاً عن تقصيرنا فى الأزمنة الطويلة المتقدمة على الأوضاع الأخيرة . . ذلك التقصير الذى استمر إلى الزمان الحاضر وهيأ لنا خسارة الدنيا والآخرة . وقد لفتُّ الأنظار هنا إلى الخسارة الأولى فقط لما تجلت هى أمام كل عين

بصيرة فأهبت بالمسلمين إلى الاحتفاظ ببقية مافى أيديهم من قوة الإسلام صونا لهم من خسارة الدارين .

أما إذا أرادوا أن يكونوا أقوياء فى الدين والدنيا معاً ويُبعثوا إلى الحياة مرة ثانية قبل مبعث الآخرة ، فطريق الوصول إلى هذه الغاية فى موقفنا هـذا الذى لا أمل لنا ولا قدرة على سباق الأمم الغالبة فى الحربين المذكورتين ، بالسلاح هو التمسك بديننا وأخذ القوة من قوته حتى القوة الدنيوية إلى حد أن نغلب الغالبين ؛ لأن الإسلام أقوى الأديان وأوفقها للعقل الذى يغلب بفضله غُلّابُ الدنيا . والقارئ يتبين هـذه النقطة الأساسية من هذا الـكتاب ، ويتبين منه أيضاً أن غلاب الدنيا فى الحروب الأخيرة يحاربون الأمم بسلاح العقل ، حتى إذا قام العقل يحارب دينهم الذى لايتفق مع العقل كسروا هذا السلاح واستسلموا للدين ولـكن لابد أن يكون هذا الدين الذى سبب قتل العقل وكسره ، مكسورا أيضاً وعلى الأقل متّهماً بقتل العقل .

ومع هذا فالقوم أصحاب هذا الدين المـكسور والعقل المـكسور يقومون بعجائب الأعمال . ونحن السليمى العقل والدين من اصطدام بعضهما ببعض بل المتقوى ديننا بعقلنا وعقلنا بديننا عاجزون أمامهم . فإن كان الدين قوة والعقل قوة فلماذا لانستفيد قوتين منهما سليمتين فى حين أنهم يستفيدون من قوتّهما مصطدمتين ؟ وماذا ينقصنا بالنسبة إليهم حتى وقعنا فى هذا العجز المقيم ؟

وقد يقال إنهم لا دين لهم أو بالأصح لا دين لرجال الدولة والسياسة والعلم الذين يقودونهم ويسوقونهم .. لا دين لهذه العناصر العقلية فيهم حتى يقع الاصطدام بين دينهم وعقلهم فيكون العقل فى واد والدين فى واد وتـكون السلطة فى غير جانب الدين . وهذا هو الشكل المعبر عنه بفصل الدين عن السياسة والدولة . وسيجىء بحثه منا فى هذا الـكتاب مع نتيجة البحث القائلة بعدم جوازه فى الإسلام . فهل هذا سبب قوتهم وتقدم بلادهم كما يدعى المدعون أيضا .

وجوابه أن فصل الدين وإقصاءه عن السياسة أخذ يُعمل به من زمان قديما في مصر وتماما في تركيا الجديدة ولم يُر من تأثيره في تقدم المملكتين ما يستحق الذكر .

وإنما يُرى أعظم تأثير الفصل في إفساد الأخلاق حيث لا يمكن ادعاء بقاء الأخلاق على نزاهتها في البلاد المقطوعة صلة حكومتها بالدين كما لا يمكن ادعاء وجود واسطة لصيانة الأخلاق من السقوط، أفضل من الدين . ولهذا أصبح التقدم المشهود في بلاد الحضارة الجديدة مليئاً بالفسق والفجور، حتى ان اتساع الميدان للفسق والفجور في تلك البلاد يعدّ من لوازم تقدمها . فإن كانت حاجة أية أمة في أخذ حصتها من التقدم والنهوض في الحضارة الجديدة ، مسلّمة لحد لزوم الإغماض عما تستتبعه تلك الحضارة من فوضى الأخلاق ، فنحن المتأخرين نلام بالتقصير في مهمتنا ونكون حريا أن يعتبرنا المتقدمون دونهم في مرتبة الإنسانية ، وإلا فالأمر بالعكس ونحن أسعد منهم وفوقهم .

ولا يقتصر حال هؤلاء الأمم المتقدمة المتحضرة في القبح ، على شيوع الفسق والفجور في بلادهم بل ينضم إلى مثالبهم الداخلية اعتيادهم الظلم والغدر على أهل البلاد التي تطاولت أيديهم إليها ينغصون عليهم المعيشة والحياة في بلادهم ويشاركونهم في اجتناء منافعها محرّمين على أهل البلاد مايحللّونه لأنفسهم من حقوق الإنسان ومتوسلين في كل ذلك بكل وسائط من الجبر والمكر والخديعة . ونحن نسمع الفينة بعد الفينة عن بعض الواقفين على أخلاق الإنجليز شعباً وأمة لا حكومة، أنهم مخلصون في صداقة من يتصادقون معهم من غير بني جلدتهم على الرغم من كون حكومتهم مع الأجانب أخدع من الضب وأخبث من الثعلب وأعيث من الذئب . لكن رأيي أن لايكون أصدقُ تمثيلا وتعبيراً عن الأمة من حكومتها ، لاسيما إذا كانت حكومة برلمانية مبنية على الانتخاب الحر لأن الحكومة الإنجليزية إن لم تتعلم المكر من أمتها فمن أي حكومة تعلمته ولا حكومة أمكر منها ؟ اللهم إلا أن تكون تعلمته من الشيطان .

ونحن لانعترف بكون الأمم المتحضرة الحاضرة المتغلبة على الدنيا بغياً وعدوانا بعد الحصول على أسباب تلك الغلبة من الاكتشافات العلميـة والأساليب المدبرة .. لانعترف بكونهم أعقل الأمم .. أما متدينوهم فلاصطدام عقولهم بدينهم ، واستسلامهم لذلك الدين ، وأما ملاحدتهم فلقصور عقولهم عن فهم الدين الذى هو فى طليعة الحقائق العالية العقلية كما يتبين من هذا الكتاب ولأن المعقول من صاحب العقل الراجح أن لا يكون ظالما ضارا لأى واحد من بنى آدم . قال أحد ذوى العقول الكبيرة :

نهانى عقلى فلا أظلم   وعز مكانى فلا أظلمُ

وعلى رواية (حلمى) فى البيت بدلا من (عقلى) فالحلم أيضاً بمعنى العقل كما فى قوله تعالى « أم تأمرهم أحلامهم بهذا » ويلزم أن تكون زيادة العقل فى الإنسان تتنافى مع الفسق والفجور أيضاً . ولذا قال الله تعالى حكاية عن أهل جهنم : « لو كنا نسمع أو نعقل ما كنا فى أصحاب السعير » فلا نسلم بكون أصحاب الحضارة الجديدة الفاجرة القابضين على زمام الدنيا أعقل الأمم .

نعم لعقولهم تقدم فى الماديات لا فى المعنويات . فلهم النصيب الأوفر من عقل ينفع صاحبه فى الدنيا ويستفيد منه شرار الناس أكثر من خيارهم ، وعقولهم من جنس عقل الشيطان الذى لما أمره الله تعالى مع الملائكة بالسجود لآدم فسجدوا وأبى ، زعم أنه أعقل من الملائكة يدلل على إبائه قائلا : « أنا خير منـه خلقتنى من نار وخلقته من طين » مع أن العقل السليم لايتصور لأحد أن يجادل الله خالقه وخالق عقله ، فكان ما اكتسبه الشيطان من عقله هذا الخاطىء الذى حفظ شيئاً وغابت عنـه أشياء ، أن أصبح رجيما ثم أذن له أن يكون من المنظرين إلى يوم الوقت المعلوم ليغوى من بنى آدم من كان لهم عقل مثل عقله وغاية مكتسبة مثل غايته ، كما أن غاية عقلاء الحضارة الجديدة أن يعيشوا ويموت غيرهم .

هـذا حال أهل الديانة فى الغرب المتحكم على الشرق المسلم ومرجعه التوغل فى الضلالات . وعقلاؤنا المثقفون من المسلمين الجدد يقتدون بالغرب ويعتبرون هذا الاقتداء عماد النهضة والثقافة لهم .

نخطتى فى هذا الـكتاب الذى يشرح كل هذه الضلالات ويعالجها ويحل كل عقدة ارتباك فى عقولنا بعقل الغرب المسيحى والغرب اللاديني : خطة الانصراف عن تقليد الغربيين الذىدب دبيبه وهبت عاصفته ثمرست ورسخت فى أدمغة كتابنا المصريين وبعض علماء الدين . نخطتى وهى خطة النجاة للمسلم الجديد ــ ترك التقليد الذى كان قبل نشر هذا الـكتاب خطة المسلم الجديد ، وخطتى هذه ضد الخطة التى أوصى بها الدونــكيشوت الجديد ــ كما سماه الأستاذسيد قطب ــ فى كتاب « هذه هى الأغلال » فهو لم ير التقليد الموجود كافيا ، فأوصانا بالتفانى فى تقليد أوروبا الموجهة كل سعيها للحياة فى هــذه الأرض كالساعة السمينة القوية الخالية عن فـكرة التطلع إلى سماء الدين والأخلاق ، فإن كان قد يرفعهم من الأرض مايركبونه من الطائرات ويقربهم إلى السماء فليس ذلك إلى الله تعالى بأجنحة من الدين وفضيلة الأخلاق ، والتطلع إلى الله على قول صاحب الـكتاب كفيل بإفساد الحياة !!

نترك التقليد فى العقلية الدينية وتقدير صلتها بالعلم فى معناه الصحيح ، فنملك استقلالنا فى العقيدة التى هى أساس الأعمال الصالحة والتى استقلالها يتقدم على الاستقلال السياسى للأمم الإسلامية ، والمسلم المتعلم إنما يكون مسلماً متعلماً بالاستقلال فى العقيدة الدينية ولا يجوز للمسلم المتعلم تقليد غيره من المسلمين فى العقيدة فما ظنك بتقليد غير المسلمين . وهذا الـكتاب يكفل لهذا المسلم المتعلم إن شاء الله بهذا الاستقلال . وليس ذلك من صعاب الأمور عليه ، لايكلفه شيئا سوى استعمال عقله بحرية غير مقيدة بغير الدقة والاهتمام فى فهم مباحثها .

فللمسلم قوتان : قوة من دينه وقوة من عقله ولا قوة لمن لا دين له من دينــه ،

والمسيحى فى حرب مستمرة بين دينه وعقله المتعارضين ، فينقص كل منهما من قوة الآخر ولا يدخل فى قلب صاحبه إلا مفتوت العضد ، فى حين أن قوتى الدين والعقل سليمتان فى قلب المسلم متحالفتان . أما الذين يقلدون الغربيين فى الشرق متدينيهم وملاحدتهم معا فلهم قوة التقليد فقط .

وبعد اقتناع المسلمين المتعلمين بعقيـدة الإسلام اقتناعا يتفق مع العقل والعلم الصحيحين يكونون مسلمين حقيقيين ويسهل لهم الحصول على مايحتاجون إليه أيضا من العمل بأحكام الشريعة الإسلامية ، إذ العمل مبنى على العقيـدة التى لايتعب بها الإنسان أصلا بعد استيقانها بعقله وفهمه ، بل تـكون له منها قوة ينشرح بها صدره ويستعين على القيام بالناحية العملية التى ليست بسهلة فى حد ذاتها سهولة الناحية الاعتقادية ، لانطوائها على تـكاليف وتضحيات .

وبانضمام العمل إلى العقيدة يحصل الـكمال فى الإسلام وينتفع المسلم العامل بدينه فى الدنيا قبل أن ينتفع به فى الآخرة . أما العقيدة المجردة من العمل فهى لاتجدى المسلم فى دنياه غير إعانتها على العمل لو عمل ، وتكون جدواها فى آخرته إنقاذه من عذاب الأبد ، إن أمكنه الاحتفاظ بها طول عمره سليمة من غير أن يعمل بمقتضاها، كما أن العمل من غير عقيدة مستبعد غاية الاستبعاد وعـديم الفائدة بالمرة فى آخرته . والمسلمون فى زماننا يتلاومون فيما بينهم بالتقصير فى العمل عازين إليه تأخرهم المشهود ، مع أن تقصيرهم فى العقيدة التى لاتقبل التقصير أصلا أشد من تقصيرهم فى العمل، وهو داؤهم الذي أصيب به الـكثرة الساحقة من مثقفيهم فعاقهم عن الصلاة والصيام ، وعاق حكومتهم عن العمل بقانون الإسلام فى بلاد معدودة من البلاد الإسلامية استبدالا به قانون فرنسا أو غيرها[1] أو تعديلا فى قانون الاسلام يتضمن الخروج

[١] دار الإسلام فى عرف الفقهاء تطلق على البلاد التى يحكم فيها بقوانين الإسلام ويسمى خلافها دار الحرب .

عليه باسم التسهيل على الأمة أو التوفيق بمصلحتها ، حتى ان الكثيرين يعجبهم فصل الدين عن الدولة ، وحتى كان الشيخ الأكبر المراغى لايعد الفقه من الدين ولا التغيير فى أحكامه تغييراً فى الدين[١] وكان كل هذه المحاولات يتظاهر أصحابها بالخروج على الجمود فى الإسلام طلبا للسهولة والمصلحة والتجديد فى ناحية العمل ، لكن الحقيقة أنهم خارجون على الإسلام نفسه من ناحية العقيدة أي ناحية الإيمان به الذي هو أساس العمل بأحكامه ، ولهذا سهل عليهم التغيير فى أحكامه العملية ، ولهذا أيضاً عُنيت فى هذا الكتاب بالناحية الاعتقادية وصرفت كل جهدي فى تثبيتها ، وإنما قلت ان محاولى التجديد فى أحكام علم الفقه طلباً للسهولة والمصلحة العامة غير عاديها من الدين ، يريدون الخروج على الدين نفسه لأنا نراهم قد يجترئون أيضا على تغيير وتجديد فى عقائد الإسلام الثابتة بالكتاب والسنة ، ومثاله إنكارهم المعجزات الكونية للأنبياء ، فهل فى ذلك أيضا تسهيل على المسلمين وخدمة لمصلحتهم ، أو فى الاحتفاظ بالعقائد سالمةً عن التغيير تشديدٌ عليهم كأنهم أنفسهم يأتون بتلك المعجزات؟ وكأن فى إنكارها أو تأويلها بما يخرجها عن الإعجاز تخفيفا وتسهيلا على الله الذى هو مظهرها على أيدى أنبيائه ! وكأن الشيخ المنكر لرفع عيسى عليه السلام إلى السماء المنصوص عليه فى كتاب الله ونزوله فى آخر الزمان المنصوص عليه فى الأحاديث النبوية يصّمّد بنفسه فى السماء فتخطفه الطير أو تهوى به الريح فى مكان سحيق لو اعترف بالرفع والنزول ؛ فيضطر إلى تأويل القرآن برفع روحه ورفض ستين حديثا فى نزوله رواها ثلاثون صحابيا ! وهل المحاولون رد النبوات إلى العبقرية ـ لكون النبوة ومايلازمها من المعجزات خوارق والتباس خوارق العادة عليهم بخوارق العقل المستحيلة ـ لايدركون مبلغ خطورة الضلال فى الاعتقاديات معرضين عن درسها وتمحيصها إلى أن يتجلى لهم

[١] لهذا البحث تفصيل وتمحيص يأتى فى الباب الرابع من الكتاب .

الحق ويمتاز من الباطل[١] وهل الكسل فى درس العقيدة الدينية للطائفة القادرين على الدرس والتنقيب أو على الأخذ من القادرين ، يقاس بالكسل المتعلق بناحية العمل المؤدى إلى التقصير فى القيام بحقها ، أم له مغزاه المنبيء عن عدم الإيمان بالدين أو عدم التحرج من أن يكون إيمانهم خليطا بالشك ؟

* * *

أما إذا عاد المسلمون إلى سيرتهم الأولى وصاروا مسلمين حقيقيين ، يتقدمهم خاصتهم المتعلمون فى متانة الناحيتين ، فيكونون خير مثال لعامتهم فى اعمار المساجد بالعبادات والمسارعة إلى الخيرات واجتناب المنكرات ، ويكون الكل المجموع من خاصتهم وعامتهم خير نموذج لأمم العالم — فى فضائلهم الخلقية ومبادئهم الإنسانية فتقصر المسافة بين أغنيائهم وفقرائهم كما تذوب الفروق القومية فى وحدتهم الإسلامية. وقد أثبتنا فى الباب الرابع من الكتاب أن الإسلام جنسية مستجمعة للوازم الجنسية لايدانيه فى هذه الميزة أى دين فتحصل بين كل مسلم ومسلم من مجموعهم الذى يناهز ثلاثمائة مليون نسمة شركة تضامن وتعادل لا يفضل عربيهم على أعجميهم ولا أبيضهم على أسودهم إلا بالتقى ولا يحب مسلم لأخيه المسلم إلا مايحب لنفسه . . تضامن أصدق وأنزه وأسمى مما فى شركة الشيوعية العالمية الحديثة والماسونيـة القديمة ، لكون الغاية من هذا التضامن كسب الآخرة قبل كسب الدنيا ، يتمسك به على أنه واجب دينى ، وكون الديمقراطية التى فيه أصح من الديموقراطيات القائمة على الدعايات والمخادعات .

---

[١] مما يدل على عظم خطورة الناحية الاعتقادية فى الإسلام التى هى الناحية العلمية ، بالنسبة إلى الناحية العملية ، مع كون الثانية أصعب من الأولى .. أن شارب الخمر بالفعل أو الزانى بالفعل مثلا لا يكفر مادام يعد نفسه آثمـا فيا فعله ، ويكفر من لم يزن ولم يشرب الخمر فعلا ولكنه أباحهما .

فالديمقراطية الإسلامية التى هى وضع إلهى تشعر بالمسئولية عند الله قبل الناس ويتسع صدرها لصالح البشر جميعا كما كان الله للجميع فى المثل الفرنسى ولا تعمل لحساب قومها على حساب أقوام أخرى ... لابد أن تفوق الديمقراطيات الموضوعة بأيدى رجال سياسيين وأن تخدم أكثر منها لخير البشر ، والفائدة التى تضمنت لحساب الفقراء تصل إليهم مباشرة وطوعا من الأغنياء الذين جعل الله فى أموالهم حقا للسائل والمحروم . . تصل إليهم ولا يبقى معظمها فى أيدي السماسرة السياسيين الذين ابتدعوا ماابتدعوه من الديمقراطية الشيوعية والبلشفية لإنقاذ الفقراء من أسر الأغنياء ، فأصبحت النتيجة وقوع الفقراء والأغنياء جميعا فى أسر أولئك السماسرة .

وأصدق ناحية القول عن البلشفة التى ينساق إليها الفقراء وأصحاب القلوب المتألمة بآلامهم من كل أمة ويقلق هـذا الانسياق بال كل دولة ، على الرغم من أن حال الفقراء فى بلاد البلاشفة أو بالأصح حال عامة الناس غير المديرين لتلك البلاد ، لا تزال فى ظلام دامس ، لاسيما من ناحية الحرية التى هى أعز مايملكه الإنسان ، فربما يتمكن غير البلشفى من الدخول فى البلشفة ولا يتمكن من الخروج عنها فى ديارها ...

أصدق ناحية القول عن البلشفة التى ينساقون إليها رغم خطرها ، انها دلت على إفلاس الديمقراطية القومية العقيمة من حيث انها لاتقبل الانضمام إليها من خارج القوم ، لكونها مؤسسة على الفوارق العنصرية لا على المبادئ الفكرية المباحة لكل من يعتنقها . ولهذا ترى الديمقراطيين القوميين إذا أرادوا أن يتوسعوا ويجعلوا لهم قوة مكتسبة فوق قوتهم الطبيعيـة ، احتاجوا إلى اعتناق أحد المبادئ الفكرية والمذاهب الاجتماعية منقسمين إلى أحزاب ، حتى ان الروابط الحزبية تتغلب على الرابطة القومية فتحدث الجدال والخصام بين أفراد قوم واحد . وكل هذا يدل على أن الإنسان

من حيث انه إنسان ينحاز إلى زملاء الفكر والروح ، وبه يتحقق معنى المدنية الخاصة بالإنسان . فهذا الإنسان قد يقع فى طريق البحث عن المبادئ الفكرية والمذاهب الاجتماعية قضاء لحاجته الروحية وتقوياً بالزملاء المكتسبين الذين لا يجد لهم حدود ، فى الشيوعية .

فانسياق الناس إلى البلشفة التى لها جاذبية المساواة وإلغاء الطبقات ، مع مافيها من خطر الحد الشديد من الحرية والطغيان على الفضيلة والأخلاق .. عبارة عن الغلط فى الاختيار من الديمقراطيات المبنية على مبادئ الفكر ، ولو اختاروا الديمقراطية الإسلامية لوجدوا فيها مايبحثون عنه من غير تورط فى أى خطر .

فالمسلمون إن كانوا مقدرين حق التقدير أن دينهم أقوى الأديان فى تأسيس رابطة بين العقل وعقيدته ورابطة متينة أخرى بين طبقات المتدينين به .. إن كانوا مقدرين قوة الروابط التى تجعلهم أقوى أمم الدنيا بغير سلاح ، رأوا أن دينهم مستعد لأن يعلنوه بأقوالهم وأفعالهم أفضل مبدأ وأصلحه لدعوة البشرية إلى تحت رايته ليكونوا اخوة متعاونين على البر والتقوى لا على الإثم والعدوان ، لا يدانيه مبدأ القومية الضيق ولا مبدأ الشيوعية المنافق ، فكيف يكون الروس بفضل تمسكهم بمبدأ البلشفية التى تأخذ قوتها الممتازة من فقراء العالم فى كل أمة المنجذبين إليها وممن يرحمونهم من أصحاب القلوب .. أقوى الأمم الحاضرة ، ولا نكون نحن المسلمين أقوى منهم بفضل التمسك بالإسلام ؟ فهل ميزة السوفييت فى كون باطنها مخالفاً لظاهرها[1] ؟ أم فى

---

[١] فقد نقل الأستاذ التابعى فى (أخبار اليوم) عن أمريكى سماه (ر . ا . ت) قضى سنوات فى موسكو قبل الحرب وأثناء الحرب لا يذكر أنه رأى فى أحد شوارعها واحدا يبتسم وأن الجميع يسيرون وكأن حملا ثقيلا من الهموم يركب رؤوسهم وأكتافهم .

ومن أدلة كون الروس السوفييت لا يتفق باطنها مع ظاهرها . . من أدلته الواضحة المفضحة وقوف هذه الدولة فى مسألة فلسطين التى يتنازع فيها اليهود العرب ، بجانب اليهود ومسابقتها =